الترجمة وإشكاليّة التحيّز

Translation and cultural dimension

د/ إبراهيم بوخالفة *

تاريخ الإرسال: 2020/05/12	تاريخ القبول:2020/06/30	تاريخ النشر:2020/06/30

الملخص:

الترجمة شكلٌ من اشكال المثاقفة، وهي التوقُ إلى الآخر، والتّماسُ الفكري والروحي معه. يقف المترجم على الحدود بين نظامين ثقافيين غريبين، بين قوميّتين تجهلُ إحداهما الأخرى، فيتشكّل عن هذا الجهل رهاب الأجنبي العدواني، ويحاول الوسيط بينهما تحويل المجهول إلى معلوم، والمرهوب إلى مرغوبٌ، والبعيد إلى القريب، والعدوّ إلى صديق.

غير أنّ المترجم قد لا يكون رسولا أمينا بين القارئ والنصّ، إذا لم يكن أمينا مع عمله؛ إذا لم يتحرّ الموضوعيّة والحياد، فيتصرّف وفق ما تمليه عليه تحيّزاته القوميّة والفكريّة؛ وبذلك يشوّه النصّ الأصلي، ويتصرّف في صياغاته وعباراته بشكل يؤثّرُ على المعنى. إنّها الترجمة المتمركزة حول العرق. ومهما يكن فإن مقولة الترجمة الحرفيّة أو الدقيقة بشكل مطلق تبدو متعذّرة بالنظر إلى الاختلاف بين أنظمة اللغات المختلفة. غير أنه يمكن للمترجم أن ينتج نصّا قريبا من النصّ الأصلي، إذا تجرّد من تحيّزاته.

هذا المقال يحاول أن يدرس احتمالات العمل الترجمي وحدود الموضوعيّة فيه.

الكلمات المفاتيح:

الترجمة؛ المثاقفة؛ الترجمة التحويليّة؛ الترجمة الحرفيّة؛ التمركز حول العرق.

المؤلف المرسل: إبراهيم بوخالفة Boukhalfa.brahim@gmail.com

*** المركز الجامعي مرسلي عبد الله Boukhalfa.brahim@gmail.com**

Abstract:

Translation is a form of intellectualism, the yearning for the other, and the intellectual and spiritual connection with him. The translator stands on the border between two strange cultural systems, between two nationalities, one of which is ignorant of the other.This ignorance constitutes an aggressive alien phobia, and the mediator tries to turn the unknown into the known, the feared to the desirable, the distant to the near, and the enemy to a friend.

However, the translator may not be a faithful messenger between the reader and the text, if he is not honest with his work; if he does not investigate objectivity and impartiality, he shall act according to his national and intellectual prejudices; thus distorting the original text and acting in its formulations and phrases in a way that affects the meaning. It's the translation centered around race. Whatever the case, literal or accurate translation is utterly impossible given the difference between different language systems. However, the translator can produce a text close to the original, if stripped of its biases.

This article attempts to study the possibilities of translation work and ***the limits of objectivity.***

Key words

Translation ; transformative translation ; literal translation ; positioning around race ; Intellectualiism.

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊

تعيش المجتمعات الثقافيّة حالة من الهجنة نتيجة عمليّات الاحتكاك الإرادي والقهري، على مدار تاريخها الطويل، إذ أن العزلة والعوالم المغلقة تخنق الثقافات الوطنيّة، وتوهنها وتفقرها. والأفكار كائنات عابرة للحدود القوميّة، تنزلق من بين الجدران، كما ينزلق الماء من بين الأنامل. إن الانكفاء على الذّات بدعوى المحافظة على معالم الهوية الحضاريّة لم يكن الحلّ المناسب لحماية الذّات من سلطة الآخر وهيمنته. لذلك تسعى الشّعوب إلى إغناء رصيدها المعرفي والثقافي من خلال عمليّات المثاقفة مع الحضارات الأجنبية التي تختلف عنها في اللغة ورؤيات العالم، والعادات والتقاليد والقيم الجماليّة. لقد حدثنا التاريخ عن الاحتكاك بين الثقافة الرومانيّة –المنتصرة عسكريا- والثقافة اليونانيّة –المنتصرة ثقافيا-، وكان هذا الاحتكاك مثمرا إلى حدّ بعيد في إغناء الثقافة الغربيّة القديمة عموما،

كما كان مثمرا بالنسبة للحضارة العربيّة التي ترجمت صفحات طويلة ونصوص كثيرة من ذلك التراث الإنساني العظيم، دون أن تفقد معالم هويتها العربية والإسلاميّة .

في هذا المقال سنوجّه محرق اهتمامنا إلى دور الترجمة في عمليّات المثاقفة بين الشعوب والحضارات، من خلال الوقوف على بعض التجارب الترجميّة، وما قد يشكله ذلك من خطر على ما قد يصيبُ النصّ الأصلي من تشويه، بسبب عمليّة التأويل التعسفي للنصوص أثناء نقلها من لغة إلى أخرى.

مراحل تطور الثقافة:

لقد عرفتْ الحضارة اليونانيّة دورات تاريخيّة تفاعلتْ فيها مع حضارات شرقيّة سابقة لها، وأخذت عنها أفضل ما تملك، غير أنّها مزجت العناصر الأجنبيّة التي استعارتها بأنفاسها وأودعتها بَصْمَتَهَا الثقافيّة حتى غدتْ مادّة علميّة محليّة، مندمجة مع تراثها العام. ولم يشعر العربُ لمّا ترجموا معارف اليونانيين والإغريق أنهم كانوا يتعاملون مع تراث علمي هجين، وإنّما بدا لهم غربيّا خالصا، فيه آلهتهم ورياضياتهم وأساطيرهم وملاحمهم الحضاريّة وإبداعاتهم. ومن هنا يحقّ لنا أن جزم أنّ الترجمة كانت نشاطا معهودا منذ القدم، منذ أن كانت النّصوص تُكْتَبَ بلغات مختلفة؛ غير أنّها نشاطٌ "يعامَلُ معاملة دونيّة كنشاط ثانوي، أو تابع لأنشطة ثقافيّة أكثر أهميّة منه"[1]. ولعلّ النشاط الأكثر اعتبارا هو الكتابة باعتبارها إبداعا وتفكّرا وتفكيرا، أمّا الترجمة فقد كان ينظرُ إليها على أنّها تطفّلٌ على ملكيّة الآخر، واختراقٌ لسكينته، وربّما دون استشارته.

كتب الشاعر والناقد الانجليزي درايدن في إهداء ترجمته لحساب الشاعر الروماني فرجيل (الإنياذة) واصفا النشاط الترجمي بكونه تبعيّة فكريّة للآخر: [2] "نظلّ عبيدا يعملون في حقل إنسانٌ آخر، نزرعُ العنب، ولكنّ النّبيذ لصاحب الأرض"[3]. لقد وُصِف المترجم في سياقات مشابهة بكونه مقلِّدا ومكرِّرا وتابعا وعبدا لصاحب النص، وعاجزا عن إبداع نصّه انطلاقا من الذّات، لذلك فإنّه أثناء عمليّة النقل يتعمّد إفساد النصّ الأصلي وتحريفه، أو تحميله ما لا يحتمل.

في النصف الثاني من القرن العشرين، انبثقتْ رؤية جديدة للعمل الترجمي من قلب الشرق هذه المرّة، من جامعة تل أبيب، وكانت تهدفُ إلى تجاوز ثنائية النصّ الأصلي/النص المترجم-المبدع/المترجم. هذه الثنائيّة التفاضلية لم تؤسّس على دراية بحيثيات الترجمة. دعا

الباحث العبري (إيتامار زوهار) "إلى نظرة مخالفة قوامها النظريّة المعروفة في علم اللّغة بنظريّة سابير-ووف القائلة بأنّ اللّغات ليستْ متساوية في أنظمتها ومفرداتها، بل إنّ لكلّ لغة نظامها اللّغوي المستقلّ الذي يعكس الثقافة المحيطة بوصف هذه الأخيرة انعكاسا للبيئة التي يعيش فيها الإنسانُ والتي تحكم تفكيره"[4]. إنّ الاختلاف الثقافي بين بيئة النصّ الأصل وبيئة النص المترجم، كما هو الاختلاف بين اللغات فهو سنّة كونيّة وهو من طبيعة الشّعوب التي تبحثُ عن الفرادة والتميّز الذي هو من صلب التّعيين الهووي؛ وفي هذا السياق يخطر بالبال قول الله تعالي "وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا"[5]، والمقصود من هذه الآية أن الاختلاف بين الشعوب في اللسان وفي الأبعاد الثقافيّة، وفي المظهر الفيزيولوجي يهدف إلى تمكين البشر من تحديد هوياتهم المختلفة، فإنّ الأشياء تُعرفُ بأضدادها. وفي قوله تعالى "ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم، وألوانكم، إنّ في ذلك لآيات للعالمين"[6]، تأكيد لمعنى الاختلاف، ولكونه ظاهرة وجوديّة، تميّز الشعوب والثقافات فيما بينها. وانطلاقا من هذا الإدراك لا بدّ من تغيير رؤيتنا للفعل الترجمي والتخلّي عن مطالب الدقة والأمانة كقيمتين أساسيّتين في عمليّة الترجمة؛ لقد أضحى ذلك المطلب غير مشروع من منظور ما بعد البنيويّة، ومع النقد التفكيكي الذي تكفّل بالكشف عمّا ينطوي عليه الخطاب الترجمي من تحيّزات وتناقضات.

يشكّك التقويضيّون في الازدواجية التي تتحدّث عن نصّ أصليّ وآخر يسعى إلى محاكاته؛ إن ما يُطلَقُ عليه النص الأصلي هو في حدّ ذاته نسخة عن نصّ سابق، من منظور باختين وكريستيفا. لا يوجد نصّ أصيلٌ باستثناء الخطاب القرآني، أو خطاب آدم عليه السلام، فذانك خطابان غير مسبوقين، ولم يؤخذا من نصوص سابقة، باعتبار غياب هذا السابق المفترض. إن مقولة الأصل هي مقولة ميتافيزيقيّة، ومن هنا يعمد ديريدا إلى نسفها. فيما يرى الفيلسوف الألماني بينيامين "أنّ الترجمة إحياءٌ للنصّ المترجم، أي انّها تتضمّن أهميّة خاصّة تنأى بها عن أن تكون مجرّد محاكاة أو صدى للنصّ السّابق"[7]. وقد قال بهذه الفكرة الناقد الأمريكي عزرا باوند فيما يشبه الإيعاز بإمكانيّة التصرّف الواسع وعدم الاكتفاء باستعادة دقيقة للنصّ. لقد ترجم عزرا باوند جزءا من الشعر الكلاسيكي، واتّهمه كثير من النقاد بعدم التزام الصّرامة العلميّة أثناء الترجمة، وذلك يعني أنه لم يلتزم بالترجمة الدّقيقة وتعمّد التّدخّل في إنتاج المعنى. وهو إذْ ينبري للدّفاع عن نفسه يمضي قائلا: "لم

يتضمّن ما قمتُ به أي نوع من الترجمة، ناهيك عن الترجمة الحرفيّة. كانت مهمّتي هي إعادة إنسان إلى الحياة، تقديمُ شخص حيّ"[8]. والترجمة من هذا المنظور هي عبارة عن بعثٍ للحياة لنصٍّ غائب. يُلمِع موقف باوند هذا، ما آلتْ إليه الترجمة في مرحلة ما بعد الحداثة، حيث يغدو البحث عن ماهية النص، بحثا في الميتافيزيقا، وهي ماهية يتعذّرُ القبض عليها. إذْ أن مستويات كثيرة مترسّبة في الطّبقة التحتيّة للّغة لا يمكن نقلها من لغة إلى لغة أخرى، بسبب اختلاف المنظور الثقافي ورؤية العالم والمخيال الرمزي الذي يتشكّل منه لاوعي جمعي يتحكّم في إنتاج النّصوص.

يأتي بعد ذلك موقف الأمريكيين اللاّتينيين من الترجمة. وندرك مليّا العلاقة الإشكاليّة التي تربطهم بالكولونياليّة الغربيّة، إذْ أنهم كانوا مستعمِرين من قبل الأوروبيين، الأمر الذي يغذّي كراهيّة ممزوجة بالحنين إلى الماضي الكولونيالي الذي يربط الشعبين الغربي والأمريكي-اللاتيني. "ظلّ مثقّفو تلك البلاد يشعرون إزاء الحضارة الغربيّة شعورا يمتزج فيه الانتماء بالكراهيّة. وقد تبلور هذا الشّعور لدى بعضهم في النظر إلى تلك الحضارة نظرة تشبه نظرة أوديب إلى أبيه، أي نظرة صراع مع سلف يرتبط به ارتباطا يصعبُ الفكاك منه؛ ثمّ تطورت تلك النظرة إلى نظريّة في الترجمة تتّسق مع التطوّرات ما بعد الحداثيّة، وتتحوّل الترجمة بمقتضاها إلى نوع من أكل لحوم البشر"[9] وهو عبارة عن امتصاص لحوم الأموات من قبل الأحياء. وبهذا تغدو هذه الاستعارة البليغة تعريفا قويّا للفعل الترجمي باعتباره عمليّة امتصاص معاني النص الأصلي الجيدة والعميقة ولفظ ما تبقّى من معاني سطحيّة والتي لا تعني الثقافة المستقبِلة في شيء. يترجم الأمريكي اللاّتيني "الأعمال الأوروبية ويؤسس ثقافة وطنيّة على ما فيها من فكر وقيم فنيّة تناسبه"[10]. ممّا لا شكّ فيه أن هذه النظرة مخالفة لموقف الأوائل من الترجمة، وهو ذلك الموقف المهووس بالأصل والماهية. لقد ترك اللاتينيّون لأنفسهم هامش الحركة في الفعل الترجمي، مما يسمح لهم بالتصرف في معاني النص أثناء نقله إلى لغتهم الوطنيّة. تنسجم النظرة الأمريكيّة اللاتينيّة في موضوع الترجمة مع موقف المهتمين بالدراسات البوستكولونياليّة الذين يتحدّثون عن هجنة الثقافات في المجتمعات التي طالها الاستعمار وتواشج معها وذلك "يجعلها خليطا من المحلّي والأجنبي الذي أدخله المستعمر ممّا يؤدّي إلى الحيلولة دون وصول تلك الثقافات إلى ما قد تعتبره ماضيا نقيّا (.....) ويؤدّي ذلك بدوره إلى دفعها للقبول بنوع من التعددية الثقافية والانطلاق

منها في العمل الثقافي، ومنه الترجمة"[11]. إنّ ما نشاهده اليوم هوّ أنّ وتيرة العمل الترجمي أعلى في الدّول ذات الثقافات الهجينة، وأولى تلك الدّول هي التي طالها الاستعمار الغربي.

توجدُ شروطٌ موضوعيّة تتحكّمُ في النشاط الترجمي ضعفا وقوّة، كمّا ونوعا؛ وقد تحدّث زوهار عن أهمّ تلك الشروط، مختزلة في ثلاثة عناصر. وأولاها أن يكون الأدب في حالة مبكّرة من التطوّر، الأمر الّذي يدفع بالمشتغلين في الحقل الثقافي والأدبي إلى تعزيز المعرفة بالثقافات العالميّة لتكوين أفق كوسموبوليتي يمكّنهم من تعميق إدراكهم لوضعهم الوجودي، وشرطهم المعرفي. والعامل الثاني هو أن يكون الأدب في بلد ضعيف وهامشي. ويدفع به هذا الوضع المتأخّر إلى تكثيف احتكاكه بالآداب الأجنبيّة من أجل إغناء الذّات وتجاوز حالة القصور الفكري والجمالي التي يعاني منها البلد. وهي الحالة التي عنتْ العالم العربي بعد الاستقلال السياسي، حيثُ وجد العربُ أنفسهم في أضعف حالاتهم الأدبيّة والفكريّة عموما. وبما أنهم كانوا في حاجة ماسّة للتواصل مع الغرب والاستفادة من نهضته العلميّة والأدبيّة، فقد أحدثوا بينهم وبين تراثهم قطيعة معرفيّة، أساسها أن ذلك التراث هو سبب تخلّف العرب، ومن أجل تحديث الثقافة والمجتمع لا بدّ من الأخذ بالنموذج الغربي في الثقافة والأدب والفكر. وواضحٌ أنها عقيدة استشراقيّة، تلك التي تبخس الذّات، وترتمي في أحضان الغرب دون مراعاة المحاذير الإيديولوجيّة التي تتسرّب مع النظريات العلمية والكتابات الأدبيّة، والتي من شأنها أن تُحدِث حالة انفصام عن الشخصيّة أو تحدث استلابا ثقافيّا، يصعب تداركه. وما يهمّنا في هذا المقام هو ارتفاعُ وتيرة الأعمال الترجميّة من اللّغتين الانجليزيّة والفرنسيّة. والملاحظ أنّ العرب لا يزالون إلى اليوم يولون اهتماما بالغا بالترجمة، ويتابعون المنجزات العلميّة والأدبيّة في الغرب ويسهرون على ترجمتها.

ثالثُ العوامل التي تنعش التّرجمة هي أن يكون الأدب في بلد ما في حالة أزمة أو فراغ؛ وبيان ذلك أنّ نسبة الأعمال التّرجميّة في إيطاليا على سبيل المثال، وفي عقد الثمانينات من القرن الماضي، حيثُ كان الأدب يعاني حالة ركود، قد بلغتْ 100/26 لترتفع بعد ذلك إلى أزيد من 100/50مقارنة بالمنشورات الوطنيّة. بينما يبدو الوضع في أمريكا وانجلترا على النقيض من ذلك. ففي الثمانينات، إلى التسعينات من القرن الماضي، بلغت نسبة الإنتاج الترجمي 100/3.5، وفي انجلترا لم تتعدّ 100/2.5، في دلالة واضحة على حالة الإشباع الذي تشعرُ به الثقافة المحليّة هنالك. "ولا شكّ أنّ لذلك صلة وثيقة بالشّعور بالتفوّق لدى الناطقين

بالانجليزيّة في الثقافة الانجلو-سكسونيّة، وضعف ذلك الشعور أو غيابه لدى غيرهم كالإيطاليين مثلا"[12]. إنّ الشعور بالحاجة إلى الآخر تدفع إلى الرفع من وتيرة الترجمة من أجل إشباع الخصاصة المعرفيّة التي يعيشها المواطنون في بلد ما؛ كما أن الهامشيّة وحالة الأزمة تدفعان إلى تكثيف نقل المعرفة من مصادرها في أيّما لغة كانت. وليس أدلّ على ذلك من تجربة أوروبا الشرقيّة بعد انفتاحها على العالم الحر، والعرب بعد الاستقلال السياسي. إنّ ما قام به رفاعة الطهطاوي في مصر، وشبلي شميل في لبنان، وما أعقب ذلك من نشاط ترجمي في العالم العربي كمشروع الألف كتاب في مصر، كلّ ذلك وغيره ألهب حماسة أرباب الثقافة والحداثة في العالم العربي لنقل علوم الغرب إلى العالم العربي. وتزداد اليوم وتيرة النشاط الترجمي، إذْ يحظى بغطاء مالي ضخم، وفريق علمي أضخم، وتُرصَدُ جوائز كبيرة للمشروع القومي للترجمة، الأمر الذي أخرج العرب من الوضع الهامشي الذي كانوا يعانون منه في طيلة القرن العشرين. وقد ساعد تعميم خدمات الانترنيت على الاستفادة من الكتاب المترجم. وبذلك غدت المعرفة الغربيّة متاحة لكلّ فئات القرّاء.

لقد عرفتْ الترجمة في المجتمعات الغربيّة فترات انتعاش في القرون الوسطى. ففي القرن الثاني عشرت، عرفت الترجمة نشاطا محموما إذْ ساهمتْ في التحوّل من الأدب الملحمي إلى أدب الرومانس. كما نشطتْ الترجمة لنفس الاعتبارات في القرن الخامس عشر في إنجلترا. أمّا في العالم العربي، فقد نشطتْ الترجمة بدءا من القرن الثاني للهجرة، لدى احتكاك العرب بالثقافة اليونانيّة والإغريقيّة، رغم الوضع الحضاري المتقدّم للعرب مقارنة بالشّعوب المسيحيّة في أوروبا. لقد كان إقبال العرب على ترجمة علوم اليونان والإغريق وغيرهم من الشعوب التي عرفتْ أمجادا علميّة معتبرة، دليلا على الرغبة في معرفة الآخر والتواصل معه، دون تبخيس الذّات، ودون شعور بالنقص. وبخلاف ذلك فقد كان العرب متفوقين على كلّ الشّعوب، ومع ذلك وجدوا حاجة للاستفادة من علوم دنيويّة تنقصهم. وهو موقفٌ حضاري ينمّ عن احترام الذّات.

محنة الترجمة:

نعني بهذا المصطلح نقل النصوص من لغة إلى لغة أخرى، ومن ثقافة إلى أخرى. وإنّ نَقْلَنا لنص ما إلى اللغة المستقبلة هو عمل أريد به إغناء الجهة الناقلة، لأنّ سعي المترجم إلى نقل نص إلى لغته الأصليّة هو تعبير عن حاجة ثقافته لهذا النص. ومن هنا "فالترجمة هي

التعبير اللغوي والأدبي عن تباين بين ثقافتين وعن اختلاف. هذا الاختلاف هو بالتحديد الجزء المبدع والأصيل في حالة التّرجمة"[13]. إنّ حاجتنا إلى نقل نصوص أجنبيّة إلى فضائنا ينمّ عن اختلافنا معها، ورغبتنا الخالصة في الاقتراب منها، أو إعجابنا بها. يقرأ المترجم نصّا فيعجبه، فيسارع إلى السطو عليه، وإلحاقه بثقافة الذّات. إنّ الاختلاف الثقافي تحوّل إلى دافع قويّ للتوحّد مع آخرنا الغريب عنا، والذي تحجبه كثافة لغته وغموضها بالنسبة لنا. من ناحية أخرى، تطرحُ الترجمة محاذير عديدة، يلخّصها السؤال عن أمانة الترجمة. هل يمكن اعتبارها خيانة للنصّ الأصلي؟ أم أنها مكسبٌ للّغة المستقبلة؟ أيّ الطّرفين أحقّ بأن يُنظر إليه؟ الجهة المستقبلة والمستفيدة من هذه النّصوص التي تفد عليها من خارجها لتغنيها وتجدّدها، أم الجهة المنقول عنها، والتي أمسكتْ الكثير من بنيات النصّ العميقة ومنعتها من الانتقال إلى لغة المترجم؟ ربّما لأنها لم تنسجم مع نظامها الثقافي، أو أنها لم تنتظم ضمن أنساقه الفكريّة والجماليّة.

قد تكون الترجمة شكلا من أشكال المثاقفة وأكثرها جدوى. إنّها "فعل قراءة وتفسير وإعادة كتابة، ومشروع استيراد، وتطبيع؛ وهي نتيجة مجموعة من الخيارات، ذات طبيعة لغويّة وأسلوبية وأيضا إيديولوجيّة"[14].

لقد أقامت مادام دو ستيل في ألمانيا سنوات عديدة، وقرأت الأدب الألماني، وكانت كتاباتها تدعو قومها لقراءة جماليّات الاختلاف مع دولة أجنبيّة. وقد تكون هذه دعوة لترجمة الأدب الألماني إلى اللغات الأوروبيّة وغير الأوروبيّة، وهو الأمر الذي بإمكانه-إذا كان جادّا وغير متحيز-أن يبلور أدبا عالميّا بالمعنى الصحيح للكلمة. أدب عالمي تضيق به حدود أوروبا، فيمتدّ ليغطّي كلّ القارّات المنسيّة. وبهذه الطريقة تتحوّل الترجمة إلى ناقل للآداب العالميّة، ومروج لها وصانع لحساسيّة جماليّة وذائقة أدبية فوق-قوميّة.

يتحدّثُ بول ريكور عن "الصّعوبات المرتبطة بالترجمة باعتبارها رهانا صعبا، وفي بعض الأحيان من المستحيل رفعه. هذه الصّعوبات يختصرها بدقّة لفظ "محنة"، ذي المعنى المزدوج، باعتبارها معاناة مستديمة وامتحان. إنّها وضعٌ أمام الامتحان، كما يقالُ، لمشروع أو رغبة، أو حتّى دافع، إنّها دافعيّة الترجمة، (**La Pulsion de traduction**)"[15]. استعار بول ريكور لفظة (المحنة) من دراسة أجراها بنيامين والتر عن الترجمة ووصفها بالمحنة، نظرا للحرج الذي يتموضعُ فيه المترجم بين نظامين ثقافيين مختلفين، وهو مدفوعٌ إلى نقل نصّ

غريب عنه إلى لغته الوطنيّة، ضمن محاذير متعدّدة: أن يكون أمينا في نقله للنّصّ الأصلي، وألاّ يكون خائنا لكلا الطّرفين. تعني خيانة الذّات أن ينقل معرفة مزيّفة عن الآخر، وتعني خيانة الآخر أن يحمّل النصّ ما لا يحتمل.

يوضعُ المترجم في وضعية الوسيط بين طرفين غريبين، الكاتب ونصّه ولغته من جهة، والقارئ متلقّي النصّ المترجَم، وبين ذينك الطّرفين يحاولُ المترجم الذي يقوم بإرسال الخطاب تمرير الرّسالة كاملة من لغة إلى أخرى. إنّه وضعٌ غير مريح يكابده المترجم، إنّها مفارقة الترجمة كما يسمّيها (فرانز روزنزفانغ)(**F. Rosenzuweig**)[16]. يخدم المترجم سيّدين: الغريب داخل عمله، والقارئ ورغبته في التملّك، ويعمل على الربط بينهما، ووضعهما في إطار ثقافي واحد ليتقاسما المعنى الكامن في النصّ، ويسبب له هذا الوضع حرجا متولدا عن الرغبة في الوفاء وشكوك خيانة الأصل.

تكشفُ الرّغبة في التّرجمة على إقرار بحاجة الذّات إلى من يكمّلها، كما تكشفُ عن مفاوضة هويّاتيّة، تجعلها تتقبّل التّهجين، والكون في أرض غريبة. إنه مشروع تشكيل العقل الكوني، والتعدّد الثقافي، والوجود في أكثر من مكان، ونسبيّة القيم، وكسر التمركز حول الذّات وحول الإثنيّة. إنّ فعل التّرجمة هو استضافة للآخر، الغريب، والأجنبي، والاحتفاء به وتمكينه من مقام مرموق إلى جانب الذّات. من هذه الناحية فإنّ المترجم "يهاجم تقديس اللّغة الأمّ وهشاشتها الهوياتيّة"[17]. ومع كلّ ذلك فإنّ محنته التي تحدّث عنها والتر، في كتابه "محنة الغريب" تكمن في جزء منها في مقاومة النصّ إلى الترجمة واستعصائه على الأرض الجديدة التي يقاد إليها، وهي الفكرة التي توهنه، وتُثبّط من عزيمته. إنّ الاعتقاد المسبق أنّ النصّ قد يبدو غير قابل للترجمة تشلّه قبل أن يشرع في عمله. غير أنّ مقاومة النصّ للترجمة تبدأ في التراجع ما إن يشرع المترجم في عمله. وهذا التراجع قد تُستَثْنى منه النّصوص الشعريّة التي تشكّل معضلة ترجميّة للوسيط، نابعة من "الاتّحاد الذي لا انفصام له بين المعنى والصّوت، وبين الدّال والمدلول"[18]. في البنية الصوتيّة للمقطع الشعري، قد نُحمّلُ الصّوت من الدلالة ما يعجزُ المقابل اللّغوي للنصّ الأصلي عن نقله. إضافة إلى ذلك وبالنّظر إلى الطّابع المجازي والاستعاري للّغة الشّعريّة، فإنّ الترجمة الدّقيقة تبدو وهما. يمكننا أن نترجم المعنى أو الدّلالة الشعريّة، ولكن من المتعذّر تحميلها أنساقها الثقافيّة التي رافقتها في النصّ الأصلي. لنأخذ على سبيل المثال صورة الماء في المخيال العربي. إنها مشحونة بكلّ معاني الحياة

والارتواء من الظمأ، والشّعور بالغبطة. وهي معاني تحيلنا إلى النصّ القرآني الذي يربط بين الجنّة والماء الجاري: (جنّاتٌ تجري من تحتها الأنهار). وهو نسقٌ ثقافي يسكنُ العربيَّ الذي يعيش شوقا أبديّا إلى الارتواء نظرا للمناخ الصّحراوي القاسي، والحرارة الشّديدة مع أنه إنسانٌ مرتحِلٌ وفي حاجة ماسّة إلى الماء.

وفي مقابل ذلك نجدُ أن صورة الماء في المخيال الغربي مقترنة بالكوارث الطّبيعيّة التي تُحدثها الأمطار الطوفانيّة والعواصف الباردة. إنّ أوروبا تعيش شوقا أبديّا إلى دفء الشّمس. هذه الأخيلة والظلال لا يمكن تمريرها من لغة إلى أخرى، لأنّها تشتغل في الخفاء، وتسكن البنية العميقة للنّصّ. ومن هنا تبدو مهمّة المترجم مع النّصوص الشعريّة صعبة، وأحيانا مستحيلة. والأمر أكثر صعوبة مع ترجمة القرآن الكريم. ولأنّ علماء اللّغة أدركوا ذلك، فإن المتاح الآن هو ترجمة معاني القرآن الكريم، باعتبار وأنه كلام الله تعالى، وهو مفارقٌ لكلام البشر، وبالتالي فيتعذّرُ استدراجه إلى لغة ثانية. كما أنّ ترجمة الشعر من لغة إلى أخرى، تمثّلُ تحديّا كبيرا بالنسبة للمترجم. يتعلّق الأمر باستعصاء بلورة الأنساق الثقافيّة التي تسكن الطبقات التحتيّة للنص الشعري، عند عمليّة النقل من اللّغة الأصل إلى اللّغة الهدف. إضافة إلى تعذّر نقل الشحنة العاطفيّة بأمانة دقيقة. لننظر على سبيل التّمثيل إلى ترجمة مقطع شعري لبودلار، ومقابله العربي، ولنحاول المقارنة بين النصّين، من حيثُ الإثارة النفسيّة والحقل الدلالي، وجماليّات الأداء الشعري:

Demain, dès l'aube, à l'heure où blanchit la campagne
Je partirai. Vois-tu, je sais que tu m'attends
J'irai par la forêt, j'irai par la montagne
Je ne puis demeurer loin de toi plus longtemps.
غدا، مع مطلع الفجر، وحين تبيضّ البادية
سأرحل، أترين؟ أعلم أنك في انتظاري
سأذهب عبر الغابات سأذهب عبر الجبل
لا أطيق المكوث بعيدا عنك مدة أطول*

عندما نقرأ النّصّين بكثير من التدبّر، يتّضحُ جليّا ذلك الغشاء العاطفي الذي أخطأته الترجمة، سواء من خلال البدائل اللّغويّة التي سيقتْ في النصّ المترجم، أو في النّفَس الشعري والشعوري الذي يحدثه النصّان ضمن إيقاعٍ مختلفٍ بين الأصل والمترجم. إن الظلال التي تحدثها مفردة "**Aube**" لا يمكن نقلها إلى المقابل العربي "مطلع الفجر". ففي المفردة الفرنسيّة نستشعرُ طيفا من الحزن والوِحشة، والكآبة الوجوديّة العميقة، والتي تزداد عمقا مع المدّ الذي توفِّره عبارة "**dès**". هذا العمق العاطفي الذي يوافق لون البياض الذي يحلّ بالغابة ليبدّد ما بالنفس من قتامة، ويحوّل الميّت إلى حيّ يمكن مخاطبته وإهداؤه باقة من الورد ويمكن الاستئناس به. إن اللجوء إلى المقبرة منذ مطلع الفجر يبدو وكأنه بعثٌ للحياة، في نفس الشاعر الكسيرة، فهو يخاطب فقيدته، ويسائلها، ويعدها. ثم إنّ فعل "**partirai**" يوحي بأنّ حركة الشاعر كانت عاجلة وفوريّة كناية عن الشوق إلى المزار. ولو نتمعّن في مفردة الفجر، فإنها خالية من كلّ معاني الحزن، في المخيال الشعري العربي، بل إنّها أقرب إلى معاني الجدّة والتجدّد والقوّة التي يكون عليها الإنسان مع مطلع الفجر. إضافة إلى أنّ البياض في النصّ العربي لا يمدّنا بنفس التداعيات النفسيّة التي يوفّرها النصّ الأصلي. أو أنه يمدّنا بمعاني لا علاقة لها بالأجواء النفسيّة التي توضعُ القصيدة في سياقها. البياض في النص الفرنسي هو كناية عن نقلة من عالم الفقد والعدم والوحشة إلى عالم الكينونة والوجود بجانب الفقيدة. وبعبارة وجيزة فإن صوت الشاعر في النصّ الأصلي يبدو أكثر انكسارا، كما أن حزنه يبدو أكثر عمقا، ويأخذ طابعا وجوديا، من خلال الإيهام بحالة البعث إلى الحياة على مستوى الخيال. هذا البعث لا يتحقق إلاّ في حالة العزلة التي توفرها المقبرة والطّريق إليها. وحالة النوم التي تكون عليها الكائنات، في المنطقة الحدودية بين آخر الليل وأول النهار. إن الترجمة بالنسبة للنصوص الإبداعيّة لا يمكنها أن تدّعي الأصالة والأمانة المطلقة.

تطرح ترجمة الأعمال الأدبيّة صعوبات من نوع آخر، حيثُ تظهرُ على مستوى التقطيع ذاته للحقول الدّلاليّة التي تبين صعوبة المطابقة بين لغة وأخرى، وتصلُ الصّعوبة إلى حدودها القصوى مع الكلمات المفاتيح التي يعالجها المترجم في غالب الأحيان خارج سياقاتها النصيّة، متحريّا الترجمة الدّقيقة، حيثُ تتّخذ الكلمة معادلا ثابتا في لغة الاستقبال؛ إنّ هذا المسعى له محاذيره فالكلمات المفتاحيّة هي "مضغوطات مركّزة لنصيّات طويلة، حيثُ تعكسُ سياقات كاملة بعضها للبعض، حتّى لا نقول عن ظواهر التناصّ

المتخفية في ضرب الكلمة ذاته"[19]. وبما أنّ التناصّ هو استدعاءٌ لنصوص وسياقات ثقافيّة غائبة، أو هو إحياءٌ لماض قد مات، أو هو دحضٌ لنصوص سابقة لكتّاب ينتمون إلى نفس تقاليد الكتابة، أو إلى تقاليد معارضة أو مخالفة، بما أنّ كلّ ذلك كذلك، فإنّ التّرجمة النصيّة تبدو وهما مضاعفا. لنأخذ على سبيل التّمثيل كلمة "حريم" باللغة العربيّة؛ إنّنا نعلم ما لهذه المفردة من تداعيات واستيهامات في المخيال العربي للقرون الوسطى، وما تثيره من سريّة ورغبات محمومة في الكشف عن المخبوء، والمرغوب والمشتهى. وكلّ هذه الأنساق الثقافيّة لا يمكن نقلها للّغة الأجنبيّة لأنّ المفردة لصيقة ببيئة عربيّة محافظة وفي مجتمع ذكوري، يخفي المرأة عن الأعين، ويحشرها في الزوايا المظلمة، لتكون موضوع اشتهاء وتطلّع. إنّ الحقول الدلاليّة ليستْ فقط غير متطابقة، ولكن قد تكون متعارضة، والتّراكيب أيضا في مختلف اللّغات لا تحمل نفس الموروثات الثقافيّة. من هذه المحاذير يستمدّ النصّ الأدبي مقاومته للتّرجمة، ويعلنُ عن تعذّر استنساخه بدقّة وشموليّة. "يبقى التخلّي عن حلم الترجمة المثاليّة هو الاعتراف بالاختلاف الذي لا يمكن تجاوزه بين الذّاتي والأجنبي؛ وتبقى محنة الأجنبي قائمة"[20]. ويبقى الحلول بعمقه الثقافي متعذّرا، لأنّ النّفاذ إلى الطبقات التحتيّة للنّصوص الأجنبيّة غير ممكن إلاّ في الثقافة المحليّة.

إنّ إعادة ترجمة الأعمال الأدبيّة الكبرى بطريقة لا متناهية تكشف عن عدم الرضى عن التّرجمات السّابقة، وعن نقصانها مقارنة بالنصّ الأصلي، الذي لا يكشفُ لنا عن كنوزه دفعة واحدة، ولا يكشف عنها مُعرّاةً من التحيّزات والبنى التحتيّة والعميقة. لقد ترجم كمال أبو ديب كتاب "الاستشراق" لإدوارد سعيد، فكانت الترجمة محاولة جادّة للامساك بالنص الأصلي من حيث الحرص على تحرّي تأصيل المفردات والمصطلحات. وقد اضطر كمال أبو ديب دفاعا عن خياراته أن يستبق الترجمة بكشف مصطلحي. فهو يستغني عن عبارة "خطاب" ويفضّل بدلها "إنشاء"، كما أنه يقابل مصطلح "بيروقراطيّة" بعبارة "مكاتبية" كما يفضل عبارة "استخطاطيّة" على عبارة "استراتيجيّة. إنّه بذلك يحاول أن ينقل النص الأجنبي إلى روح اللغة العربيّة. وبعد سنوات عديدة، أعاد محمد عناني ترجمة كتاب الاستشراق، وكان الفرق بين الترجمتين بالغ الوضوح. وهما لا يلتقيان إلاّ في حدود ضيّقة. والذي يفرّق بين الترجمتين هو اختلاف الرؤية الثقافيّة للآخر، وعلاقة اللغة بالذّات الحضاريّة للمترجم. يبدو كمال أبو ديب، رغم سنوات الإقامة في الغرب أكثر محافظة على صفاء لغة الذّات. وقد نوّه

إدوارد سعيد نفسه بهذه الترجمة وأشاد بها كثيرا. وهي التي أوصلت صوته إلى العالم العربي. وفي تقديري أن ترجمة عنان تمضي في الطريق نحو مسايرة نحت المصطلحات حرفيا، على غرار "استراتيجية، بيروقراطيّة، كلاسيكيّة إلخ". إنها تتابع ترسيخ هذا المعجم في اللغة العربية وتستأنس به لكونه أضحى واقعا ثقافيا مألوفا.

يكابد المترجم نصّه من زاويتين اثنتين، فهو يراود لغته لإشباعها بالغرابة، وهو يكابد النصّ المستهدف من أجل جرجرته لثقافته. ولا يكاد ينهي عمله حتّى يُصاب بخيبة أمل مؤدّاها عدم الرضا عمّا أُنْجِز؛ والتّوق إلى ما هو أفضل وأجمل. إن فرحة المترجم لا تكتملُ أبدا، لأن الترجمة مشروعٌ مستحيلٌ بسبب اختلاف أنظمة الثقافة وأنظمة التعبير من لغة إلى أخرى؛ بالإضافة إلى أن اللّغات البشريّة كلّها مشبعة بالتحيّزات والإيديولوجيا، والتّواريخ، وتأتي الكلمات داخل النصوص المنتجة مثقلة بتواريخ استعمالاتها، ومقاصدها. وكلّ هذه الأبعاد لا يمكن نقلها من لغة إلى أخرى. إنّ ذلك من شأنه أن يدفع إلى التّراجع عن فكرة الترجمة المثاليّة. "هذا التّراجع وحده يسمح للتّرجمة بالعيش باعتبارها عجزا مقبولا: أي الاستحالة التي تكلّمنا عنها سابقا، والتي هي خدمة سيّدين: الكاتب والقارئ"[21]، وتقريب أحدهما من الآخر، على الحدود بين ثقافتين، تسعى إحداهما للحلول مكان الأخرى، وأن تحظى بالمكانة المشتهاة، مجرّدة من ثقلها السميائي، ومتنازلة عن مكان الألفة، حيثُ هي محاطة بدفء الحضور المطلق والدّلالة الكاملة والمعنى المنجز. "إنّ تنوّع اللّغات يعبّر عن تنافر جذري، ومنه تكون الترجمة مستحيلة نظريّا، لأنّ اللّغة قابلة للتّرجمة فيما بينها قبليّا، أو أنّ الترجمة إذا أُخِذتْ كحدث، فإنّها ستُفسَّرُ بذخيرة مشتركة تجعل الترجمة ممكنة، لكن هنا يجب إمّا العثور على هذه الذّخيرة المشتركة"[22]. في البدء كان الناس أمّة واحدة، وكانوا على لسان واحد، ومن سلالة واحدة، وكانت اللغة قابلة لأن يُفسِّر بعضها بعضا، وتؤوّل ببعضها، وأمّا وقد اختلفت أبجدياتها وتباعدت مكوّناتها الصوتيّة، واختلفت بنياتها النحوية والصرفيّة، وهو التنافر الذي يشير إليه بول ريكور، فقد تعذّرتْ الترجمة. ولاستعادة القدرة على الترجمة لا بدّ من العودة لأصلها الأول، "يجب إمّا العثور على هذه الذّخيرة المشتركة، وهو الطّريق المؤدّي إلى اللّغة الأصليّة الأولى، أو إعادة بنائها منطقيّا وهو الطّريق المؤدّي إلى اللّغة الكونيّة"[23]. وإنّ كلا الأمرين يجدان اعتراضا محموما من قبل المركزيّة الغربيّة التي تدّعي الكمال للّغة السنسكريتيّة، والتخلّف للّغات الساميّة. ووفق هذا المنطق المانوي فإنّ اللّغات

الأوروبيّة تكون قد فارقت الحالة الطّبيعيّة وتطورت بتطوّر العرق الهندو-أوروبي، أما اللغات الشرقيّة فقد بقيت حبيسة المرحلة الطبيعيّة، أي أنها لم تبرح المراحل الجنينيّة لنشأة اللّغات بسبب خلل في التكوين العقلي للأعراق غير الأوروبيّة، على غرار الأفارقة والآسيويين. وانطلاقا من هذا الإدراك العنصري للّغات، فإن العثور على الذّخيرة المشتركة للغات الإنسانيّة أمرٌ متعذّرٌ، كما أن إعادة بناء اللّغات من أجل إرساء لغة كونيّة، هو الآخر غير ممكن، لأنّه يعني تشميل الثقافة وتعميم المعرفة وإزالة الاختلاف والتراتبيّة، وهذه النتيجة تتناقض مع مسارات الامبريالية العالميّة تحت قبضة أمريكا.

ضرورة الترجمة:

هل بإمكان لغة ما أن تستغني عن العوامل الخارجيّة المساعدة على التطوّر والتحوّل من وضع ثقافي إلى آخر؟ هل المثاقفة فعل يتّسمُ بالجدوى، أم أنّه لا يعدو أن يكون سطوا على ثقافة الآخر، أو التسلط عليها وإلغائها؟ ما مدى صحّة القول بأن أيّما لغة لا يمكنها أن تعقل نفسها إلاّ من خلال اللّغات التي تتقاسم معها الوجود والحياة؟

لننطلق من حقيقة تعدّد اللّغات ومنه تعدّد الثقافات. ولعلّه المبرّر الوحيد لوجود الترجمة. لقد وُجِدتْ الترجمة من أجل إحلال التوأمة بين الثقافات المتباعدة، والتقريب بين الشّعوب على صعيد القيم الفكريّة والجماليّة، وهو السبيل إلى تكريس نسبيّة القيم وتجاوز التعالي الغربي على الشرق. إن الإنسان مجبولٌ على كراهية ما يجهله. وجهله بلغة الأجنبي تجعله لا يفكّر في الاقتراب منه رهبة وريبة. غير أنّ الذي يحصل هو عكس المتوقّع، إذْ لم يعد إنسان الحداثة وما بعدها يهابُ غيره، بل لقد ازداد جرأة على خرق وحدته والدّخول إلى بيته دون إذنٍ منه. إنّ كثرة اللّغات جعلتنا نقبل على الترجمة دون توقّف، وكأن اللغات الأجنبية تشكّلُ تهديدا للذّات ويتعيّن تحييد قدرتها على الإيذاء من خلال معرفتها وامتلاكها. إنّنا مهووسون بلغة الآخر وثقافته، ولا نتوقّف عن طرق بابه، وكسر سكينته، من أجل معرفة أنماط عيشه وطرائق تفكيره، ربما لكي يسهل التّعايش معه، وكسب مودّته من خلال خلق فضاء ثالث أو منطقة وسطى نلتقي فيها معه. لقد تحوّلتْ التّرجمة إلى بديل عن اللّغة العالميّة التي عجز فيلولوجيو القرن التاسع عشر أن ينشئوها، بسبب العصبيّة القوميّة.

قبل اشتهار الترجمة قديما ابتدع البشر سبيلا آخر للتّواصل، والتّعارف؛ من أجل ذلك يحدّثنا تاريخ المجتمعات القديمة والحديثة نسبيّا عن انتشار الرحلات والهجرات

الجماعية والفرديّة، والتجار والجواسيس والمبشرين بالأديان، وكل هؤلاء هم همزة وصل بين الثقافات؛ إنهم مهجّرون للغاتهم وثقافاتهم وعاداتهم وتقاليدهم، مهما كانت نواياهم من التنقل إلى الأقاليم الأجنبيّة. إن التواصل مع الآخر هو الحقيقة الإناسيّة الكبرى التي تحصل بفعل الحركة في الكون. هذه الحركة تنوب عنها اليوم الترجمة؛ بل إن الأفكار أسرع انتشارا من أي رحّالة وهي أبلغ من أي مبشّر. وبإمكانها أن تحقّق نسبيّة القيم وتعزّز التواصل بين الجماعات الثقافيّة والإثنيّة، وهذا المسعى من شأنه أن يحوّل المجهول إلى معلوم، ويزيل وهم التهديد الذي يشكّله الشّعب الذي نجهل لغته. وكأننا بالمجتمع الذي لا نتعلم لغته، يعدّ أسلحته على حين غفلة منّا من أجل مهاجمتنا. أمّا إذا تعلّمنا لسانه ونقلنا آدابه إلى لغتنا الوطنيّة، فإنه سيكفُّ عن تهديدنا، وسيتحوّل إلى صديق، نستأنس به ونغتني بامتلاك لغته وتراثه الثقافي. إن اللّغات الإنسانيّة تتكامل فيما بينها من أجل أن تعطي للأدب العالمي بعده الإنساني، حيثُ تجد كلّ أمّة صوتها، وتتعرّف على ذاتها. إن البشر في حال اجتماعهم يكمّلون بعضهم البعض، ويضعفُ عامل الصّراع بينهم، ويُنْشِئ منطقة حدوديّة تلتقي فيها كل الثقافات، وتزول المركزيّات وتتشظّى الصليبيّات. وهو الحلم الذي كان يراود غوته عند دعوته لتشكيل وحدة الآداب العالميّة، كما أنه حلم مادام دو ستيل عندما دعتْ الفرنسيين إلى دراسة الآداب الأجنبيّة والإقبال عليها دون أحكام مسبقة من أجل تكملة الروح العالميّة التي يجبُ أن تحكم البشر في شموليّتهم. غير أنّ تلك الأماني تصطدم بإيديولوجيا المؤسّسات السياسيّة، ويُسخَرُ منها، قبل أن تداس بالأقدام.

يتحدّثُ أنطوان بيرمان في كتابه "محنة الأجنبي" عن رغبة الترجمة، عن الشوق في الانغماس في كون الآخر، والوجود ضمنه، أو على تخومه، فهو يكمّلني ويشعرني بدفء الوجود. بالإضافة إلى ذلك، وبالذّهاب إلى أبعد من الرّغبة في الوجود ضمن آخرين توجد الحاجة إليهم. "إذا ما أردنا أن نبدأ، أو نسافر أو نفاوض، أو حتّى نتجسّس، فإنّنا يجب أن نتوفّر على رسل يتكلّمون لغة الآخرين"[24]. هؤلاء هم وسطاؤنا ورسلنا ومترجمونا؛ أمّا إذا أردنا أن نقتصد في تعلّم اللّغات والاستغناء عن الرسل، فإن الترجمة هي دليلنا إلى الأجنبي؛ وبفضلها قرأنا الآداب العالميّة، قرأنا هوميروس وفرجيل وأفلاطون ودانتي وشكسبير وبلزاك ودوستويفسكي وغيرهم من أرباب الآداب العالميّة، وبفضلهم تكثَّر وجودنا وتضاعفت تجاربنا، بعرض تجارب الآخرين عليها. وما من شيء أفضل للروح من عرضها على حيوات

الآخرين، وإشباعها بالغريب والعجيب والبديع ممّا هو غير مألوف في نظامنا الثقافي. وتلك منافع تنسينا "محنة الترجمة". لقد تمّ كسب رهانها وتجاوز ثنائيّة الأصل والنسخة والخيانة والأمانة "بعد مقاومات حميمية يحركها الخوف وحتّى الحقد على الأجنبي الذي يُنْظرُ إليه كأنّه تهديدٌ موجّهٌ ضدّ هويّتنا اللّغويّة الخاصّة"[25]. لنذكر في هذا المقام أنّ الاستشراق الغربي جرّد الشرق من مهابته وحيّد قدرته على الهجوم وعطّل التهديد الذي كان يشكّله على المسيحيّة في القرون الوسطى، وخلال عصور النهضة وإلى يومنا هذا من خلال امتلاك اللغة العربية ودراسة تراثها العلمي والأدبي، وإعادة تمثيل صورة الإسلام والعرب بطريقة كاريكاتوريّة بائسة، وإن شئنا فلننظر إلى رحلة فلوبير إلى مصر، أو رحلة جيرار دو نرفال، أو غيرهما من الفرنسيين والبريطانيين. وعندئذ أقبل كثير من المستشرقين يترجمون آداب اللغة العربيّة وتواريخها، وبفضل ذلك، تمكنوا من خلق حالة من الاستئناس بهذا العربي الذي لم يعد يشكّلُ خطرا على الوجود الغربي، والإسلام الذي لم يعد منافسا عنيدا للمسيحيّة.

من أهداف الترجمة الكلاسيكيّة في الغرب، في عصر النّهضة، الهدف التّبشيري المتعلّق بترجمة الكتاب المقدّس؛ "إذْ يتعيّن على كلّ شعب أن يسمع كلمة الله، ومن هنا تتحدّد ضرورة التّرجمة؛ إنّها ترجمة من أجل، وليستْ ترجمة صادرة عن. ومنذ ذلك الحين لم تتوقّف هذه العمليّة"[26]، ولا تخلو اليوم كبرى المكتبات في العالم من نصوص مترجمة عن الكتاب المقدّس، علما أنّ الإنجيل لم يتنزّل في باريس ولا في لندن، ولكنه تنزّل في أرض شرقيّة وبلغة ساميّة، ووقعتْ مصادرته إلى اللاّتينيّة، فبدا وكأنّه ديانة أوروبيّة المنشأ، وموجّهة لأوروبا تحديدا، وتعمل اليوم هذه الدول الأوروبية على تبليغ رسالة الله إلى كافّة شعوب العالم، باعتبار المسيحيّة أكبر تظاهرة ثقافيّة في العالم. وإلى جانب ذلك نجد ترجمات عديدة عن ترجمة القرآن الكريم إلى كلّ لغات العالم. والأمر يختلف هنا عن ترجمة الإنجيل، فالذي يقوم بترجمة القرآن الكريم هم عادة مستشرقون، لأنّ علماء المسلمين يعرفون أنه يستحيل أن نترجم القرآن الكريم دون تحريفه، فهو كلام الله ولا يمكن مضاهاته بكلام البشر. وفي غالب الأحيان يعمد بعض علماء الغرب الذين تحوّلوا إلى الإسلام إلى ترجمة القرآن الكريم من أجل تقريبه إلى القارئ الغربي، كخطوة أولى لدعوته إلى الذّهاب إلى النصّ الأصلي. وهنا أيضا يبدو الهدف المبدئي للترجمة دعويّا (تبشيريّا بلغة الغرب المسيحي).

وفي مقابل ذلك نرى أنّ اليهود يرتابون من التّرجمة، والمعروف أنّ اليهوديّة ديانة مغلقة على ذاتها، إذْ لا تتطوّر إلاّ داخليّا، ولا تقبل الأغراب. إنها الجماعة الإثنيّة الوحيدة التي كانت ولا تزال محافظة على وحدتها البشريّة، ولا تسعى إلى جلب الدّعم من خارج حدودها الدّينيّة، ذات الطّبيعة الأسطوريّة المترسّخة في القاع الأسفل من اللاّوعي الجماعي للطّائفة العبريّة، خلال أحقاب مديدة من الشّتات والهجرات والنفي والاضطهاد. و"في مقابل التقليد اليهودي الذي يرتاب من الترجمة، تعتبر المسيحيّة ترجمة الكتاب المقدّس إلى اللّغات واجبا مطلقا (**Impératif catégorique**) لكي يصلَ النّفَسُ (**Le souffle**) المنعش للرّوح إلى كلّ الأمم"[27]. إنّها طريقة أخرى لإنكار آخريّة الآخرين وفرض نظام ثقافي وديني، على شعوب لها نظامها الثقافي والمعتقدي وأنماط عيش، تنعم فيه بسكينة أبديّة لولا الاستعمار والامبرياليّة الغربيّة. باسم الرسالة التبشيريّة أُبيدتْ شعوبٌ بأكملها، وانتُهكت حدود، واغتُصِبتْ نساء، ودُمِّرتْ ثقافات ذات تاريخ عريق.

في القرن التاسع عشر كانت المركزيّة الفرنسيّة تشجّعُ الترجمة من وإلى لغتها القوميّة، في مستعمراتها، من أجل فرض أدبها وعلومها على المحليين، وكانت تتذرّع بنشر الحداثة، حيث استغلّت تخلّف الشعوب المستعمرة، وحالة الجهل والأميّة التي يتخبّط فيها الأهالي. وقد نجحتْ فرنسا أثناء وجودها في الجزائر في خلق طبقة ثقافيّة تكتب وتفكّر بلغة فولتار، وهو دليل على نجاح مسعاها الامبريالي جزئيّا.

الترجمة التحويليّة:

قد يكون التمركز حول الإثنيّة من وراء انبثاق الترجمة التحويليّة في العصور القديمة والحديثة. فهي مفهوم وممارسة في ثقافتين قديمتين، قدم اختلاف المجتمعات البشريّة. والمقصود بالترجمة التّحويليّة هو السّطو على النصّ الأصلي من خلال استبدال عبارة بدل عبارة أخرى لا يراها المترجمُ مناسبة لأفق انتظاره في ثقافة الذّات. أو هي استبدال مفردة بدل أخرى لإرضاء قارئ محلّي، أو لتجنّب الغرابة التي تنتجُ عن النصّ الأصلي، والتي لا يتقبّلها المترجم، أو لا يراها تُفهَمُ أو تُتَقَبَّل من طرف الجمهور القارئ. ويمكن للمترجم أن يحول معاني بكاملها، ويكون النصّ الأصلي مرتكزا لإنشاء نصٍّ موازٍ.

تسعى كلّ ثقافة إلى امتلاك إنتاجات المعاني الأجنبيّة من أجل رفع رصيدها من المعرفة وإغناء تجاربها ومشاريعها الاقتصاديّة والعلميّة. إنّ "كلّ ترجمة تمارس جانبا من

التّحويل النّصّي لأنّها تتمّ في أفق أدبيّ، وإلاّ انطبق عليها ما تدعوه اللّغة الاسبانيّة بالترجمة الخاضعة"[28]. قد تعني ترجمة قصيدة شعريّة معينة كتابة قصيدة. صحيحٌ أنّ في التّرجمة جانبا إبداعيّا، ولا مفرّ من ذلك حتّى مع الترجمات التي تدّعي الأمانة والموضوعيّة وتتحرّى الوفاء للمصدر. لقد قام العديد من الشعراء الغربيين بترجمة نصوص شعريّة كثيرة. ومن أهمّ هؤلاء الشعراء نذكر بودلار ومالارمي وجورج فاليري وآخرون. وقد ذهب بعض هؤلاء المترجمين "بأنّ من حقّهم التّصرّف بحريّة برّروها ب(قوانين) بين الشّعراء. وهي القوانين التي تعفيهم من واجبات الترجمة وتبعاتها الأخلاقيّة. ويفضي ذلك إلى إنتاج ترجمات بعيدة عن النصّ الأصلي ممّا يجعلها أقرب إلى الإبداع الحرّ. "يتعلّق الأمر بصياغات شعريّة تحويليّة لا يمكن الخلط بينها وبين التّرجمة"[29] بسبب إهمالها للعقد الضّمني بين التّرجمة والأصل وهو عقد أخلاقي بالّدّرجة الأولى. يعتقد بعض المترجمين، وعلى الأخصّ الذين ينطلقون من مركزيّة إثنيّة، أنّ من حقّهم إجراء تحويلات لغويّة أو جماليّة على النصّ الأصلي، وفق ما تمليه معاييره الذّاتيّة، ويمارسون بذلك امبرياليّة ثقافيّة تسعى للاستحواذ على المعرفة، فيما يشبه القرصنة العلنيّة. وقد تكون تلك التحويلات والتحويرات في النّصوص الأصليّة مقصودة من أجل الإساءة للنصّ الأصلي وللثقافة التي أنتجته. من أمثلة ذلك تحريف بعض المفردات القرآنيّة أثناء الانكباب على ترجمة بعض سوره، وآياته، بما يخدمُ الهجوم على الإسلام في نصوصه المقدّسة. لقد تكرّرتْ هذه الظّاهرة كثيرا في ترجمات القرآن الكريم قديما وحديثا، ولكن الإساءات المفضوحة هي تلك التي تمّتْ في القرن التاسع عشر، وهو عصر استفحال العداء للمسلمين، من خلال درس الاستشراق الذي يحطّ من قيمة التراث الثقافي الإسلامي كما يسيء إلى الذّات العربيّة في تكوينها العقلي وبنيتها الشّعوريّة.

إنّ العقد الموجود بين المترجم والنصّ الأصلي، هو الذي يعصمُ المترجم من تجاوز البناء الأصلي للنصّ، لأنّه يقتضي أن تنحصرَ إبداعيّة الترجمة في إعادة إنتاج النصّ الأصلي بلغة أخرى دون المساس بحرفيّة المعنى، ودون المرور إلى ترجمة أعلى (**Sur-traduction**) تحدّدها شعريّة المترجم وهواه الشّخصي وتحيّزاته الجماليّة[30]. وفي هذا السّياق يمكن التّمييز بين ترجمة جوف (**Jouve**)، لمسرح شكسبير وترجمة بونوي لنفس الشاعر. في الترجمة الأولى يستحوذ الشّاعرُ على النصّ الشّكسبيري ويستسلمُ لنزواته في السطو على النصّ من خلال تحويلات على أساس ذاتي. أمّا في التّرجمة الثانية فإنّ العامل الأخلاقي كان متحكّما في عمل

المترجم "حيثُ يتمّ جلب العمل الأجنبي في غرابته الخالصة نحو ضفاف اللغة المترجمة"[31]. إنّ أجمل ما في التّرجمة هو أن ننقل من خلالها عالم الآخر الأجنبي من أجل إشباع حاجتنا للغريب المدهش، وذلك من شأنه أن يُغني مخيالنا الرّمزي، ويثري أفكارنا، ويُمدَّنا بسلّم قيم غير مألوف، نتعرّفُ فيه على فرادة قيمنا الحضاريّة ونصاعة فكرنا المدهش. إنّنا نتعرّف على جمال لغتنا وثرائها من خلال اللغة الأجنبية وما توفّره من بنى نحويّة وصرفيّة وتركيبيّة تفتقرُ إليها لغتنا القوميّة. كما أنّ الترجمة الأمينة تعمّقُ إدراكنا للعالم، لأنّها تجعلنا ننظر إليه بعيون الآخرين ونفكّرُ فيه بعقولهم، ونحلم به بقلوبهم. إنّ الترجمة الأصيلة هي التي تضعنا في دنيا الآخر، وتجولُ بنا في مدنه وأزقته وبين أناسه الذين نجهلُ عنهم كلّ شيء، فندخل معهم في حواريّة من بوّابة باختين، نصافح شعراءهم وكتابهم ونجادل فلاسفتهم، ونشاكس قادتهم وزعماءهم. فالتّرجمة هي مفتاح الشّعوب الغريبة، وبوّابات المدن المحصّنة.

إنّ التحيّز لثقافة الذّات والتّمركز حول العرق هما اللّذان يدفعان المترجم إلى القيام بعمليّات التحويل التي تقتضي تشويه الخطاب اللّغوي للآخر، وتأويله وفق منطق الذّات. يحدّثنا تودوروف عن تجربة كولومب أثناء الغزو الأوروبي لأمريكا؛ هذا الأخير واجه مسألة اختلاف اللّغات بعقليّة إقصائيّة. لقد بدا وكأنّه يقرّ بأنّ للهنود لغة، ولكنّه ينكرُ أنّها مختلفة عن لغته، لأنه لا يعطي صفة الوجود إلاّ لثقافته، ولكل ما ينسجمُ مع خطّ تطوّرها وتطوّره. أمّا اللّغات المختلفة فهي أصوات طبيعيّة صمّاء. وعندما يلتقي مجموعة من الهنود يتعهّد لملك بلده وزوجته أنّه "إن كان ذلك يرضي ربّنا فسوف آخذ معي من هذا المكان عند رحيلي ستّة منهم إلى سموّكما حتّى يتسنّى لهم تعلّم الكلام"[32]. لقد بدا هذا الخطاب المتمركز حول العرق مستفزّا لمشاعر مترجمي الغازي الإيطالي، وقد دفعهم ذلك إلى تحويل جزء من نصّ الخطاب ليتحوّل إلى "حتّى يتسنى لهم تعلّم لغتنا"[33]. ينكر كولومب كريستوف أن تكون لغة الهنود لغة، مادامتْ تختلف عن لغته. وهي لا تعدو أن تكون أصوات طبيعيّة لا ترتقي إلى مستوى الحضارة. ويتعهد بتعليم هؤلاء اللغة في مؤسّسات بلده، وسيعلّمهم اللغة التي تمكّنهم من خدمة السيّد، ويعلّمهم المسيحيّة، ديانة الحضارة، على غرار ما فعل روبنسون كروزوي لمّا عثر على رجل من المنطقة التي ألقى به البحر فيها.

لنضرب مثلا آخر لنرى رأي العين التحريف الذي يطال النصّ الأصلي مع الترجمة التحويليّة. ترجم فولتير بيتا شعريّا لشكسبير هذا نصّه: "**To bee or not to bee ; that is**

the question" بهذه الطريقة: "امكث وعليك أن تختار وأن تمرّ، من لحظة الحياة إلى الموت ومن الوجود إلى العدم"[34]. هكذا يجبُ أن تكون الترجمة عند فولتير، استحواذ على النص، وتجريده من هويّته الأجنبيّة، وإشباعه بلغة الأنا. أمّا بالنسبة لأصول الترجمة الأكاديميّة والعلميّة فإن الذي أنجزه فولتير ليستْ ترجمة مطلقا، ولكنّها تأويلٌ وتحويلٌ، واستحواذٌ وإلحاقٌ. وهكذا تتأكّد الفكرة القائلة بأنّ ترجمة قصيدة شعريّة، أو نصٍّ إبداعيّ هو في المحصّلة النهائيّة كتابة نص جديد، نصّ على نصّ، بحيثُ يطغى النصّ النسخة على الأصل ويتلفُ ملامحه. إنها الترجمة الحرّة، التي لا تعتدّ بحرفيّة الترجمة، وتجيز للمترجم ما لا تسمحُ به معايير الترجمة النزيهة.

الخاتمة:

أمكننا خلال هذا المقال المقتضب التعرّف على أهميّة الترجمة باعتبارها أداة للمثاقفة والتواصل الأدبي والعلمي بين الشعوب. كما أنها تسمح لنا بتجديد أفقنا المعرفي من خلال جلب إبداعات الثقافات الأجنبيّة وكتاباتها في شتّى مجالات المعرفة. كما سجّلنا أنواع الترجمات الممكنة والتي مورستْ من قبل المهتمّين بحقل الترجمة، من بينها الترجمة الحرفيّة التي تتحرّى الأمانة العلميّة وتبدي الكثير من الوفاء للنصّ الأصلي. توجد أيضا الترجمة التحويليّة، التي لا تأخذ من النصّ الأصلي إلاّ منطلقا لتأسيس نصّ جديد.

إنّ من وراء الترجمات التي تتجاوز البحث عن الأصل والدّقّة، الصّرامةَ العلميّةَ المشدّدةَ، وهي التي تقف في وجه الترجمة الحرّة، أو التحويليّة، كما تُشنّعُ على التصرّف الاعتباطي في بعض عبارات النصّ الأصلي، بحجّة تقريب النصّ من القارئ وتقريب القارئ من النصّ. ورغم كلّ ما قيل ويقال عن أهميّة الالتزام بالأصل، فإنه يبدو أنّ الترجمة الحرفيّة والدّقيقة تبدو وهما يلاحقه حرّاس الثقافات، على الحدود، للقيام بعمليّة فرز بين الأصيل والدّخيل. فالاختلاف الثقافي والمرجعيّات الحضاريّة للنّصوص الأجنبيّة وتباين أنظمة اللّغات فيما بينها يجعل المطابقة بين النسخة الأصليّة والنصّ المترجم متعذّرة.

*** *** ***

الهوامش:

[1]-سعد البازغي، ميجان الرويبلي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضا-المغرب، ط الثالثة 2002، ص 161.

[2] -المصدر نفسه وص نفسها.

[3] -المصدر نفسه، ص نفسها.

[4] -المصدر نفسه، ص162.

[5]-سورة الحجرات، الآية 13.

[6] -سورة الروم، 20-22.

[7] -سعد البازغي، ميجان الرويبلي، دليل الناقد الأدبي، ص163.

[8] -المصدر نفسه، ص163.

[9] - سعد البازغي، ميجان الرويبلي، دليل الناقد الأدبي، ص163.

[10] -المصدر نفسه، ص164.

[11] -سمير خليل، دليل الدراسات الثقافيّة والنقد الثقافي، دار الكتاب العلميّة، بيروت-لبنان، ط 2014.

[12] -البازغي وميجان الرويبلي، دليل الناقد الأدبي، ص 165.

[13] -دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، ترجمة غسّان السيّد، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق 1998، ص66.

[14] -المرجع نفسه، ص65.

[15] -بول ريكور، عن الترجمة، ترجمة حسين خمري، منشورات الاختلاف، ط الأولى 2008، ص 15.

[16] -المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[17] -المرجع نفسه، ص16.

[18] -المرجع نفسه، ص 18.

[19] -بول ريكور، عن التّرجمة، ص19.

[20] -المرجع نفسه، ص45.

*ترجمة يحيى غوردو (باحث مغربي ولد سنة 1964 بوجدة.

[21] -بول ريكور، عن الترجمة، ص21.

[22] -المرجع نفسه، ص32.

[23] -المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[24] -بول ريكور، عن الترجمة، ص42.

[25] -المرجع نفسه، ص45.

[26] -أنطوان برمان، الترجمة والحرف، أو مقام البعد، ترجمة عزّ الدّين الخطابي، المنظّمة العربية للترجمة، بيروت-لبنان، ط الأولى 2010. ص51.

[27] -المرجع نفسه، ص51-52.

[28] - أنطوان برمان، الترجمة والحرف، أو مقام البعد، ص 61.

[29] -المرجع نفسه، ص62.

[30] -انظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها..

[31] - أنطوان برمان، الترجمة والحرف، أو مقام البعد، ص62.

[32] -تيزفيتان تودوروف، فتح أمريكا، ترجمة بشير السباعي، سينا للنّشر/القاهرة، ط الأولى 1992. ص36.

[33] -المرجع نفسه، ص 37.

[34] -أنطوان برمان، الترجمة والحرف، أو مقامُ البعد، ص59,